مجلة تراثية فصلية محكّمة

تصدر عن وزارة الثقافة - دار الشؤون الثقافية العامة

المجلد الثاني والثلاثون

العدد الثاني - ٢٠٠٥م - ١٤٢٦هـ

رئيس التحرير

د. محمد حسين الأعرجي

هيأة التحرير

مدير التحرير

د. هدى شوكت بهنام

سكرتير التحرير

محمود الظاهر

الهيأة الاستشارية

أ.د. خديجة الحديثي

أ.د. كمال مظهر

أ.د. فائز طه عمر

أ.د. داود سلوم

أ.د. مالك المطلبي

الاستاذ حسن عربيي

التصحيح اللغوي

سليم سلمان

نجلة محمد

الإشراف الفني والتصميم

جنان عدنان العامري

عنوان المراسلة

دار الشؤون الثقافية العامة

- الأعظمية -

ص. ب : ٤٠٢٢ بغداد

جمهورية العراق

هاتف : ٤٤٣٦٠٤٤

فاكس : ٤٤٨٧٦٠

الأسعار

العراق: ٥٠٠ دينار، الأردن: ديناران، الإمارات: ٢٠ درهماً، اليمن: ٢٠ ريالاً، مصر: ٣ جنيهات، ليبيا: ٢ دنانير، الجزائر: ٦٠ ديناراً، تونس: ديناران. المغرب: ٢٠ درهماً.

المشاركة السنوية

٥٥ دولاراً في الأقطار العربية. في دول العالم الاخرى ٨٠ دولاراً.

www.dorat-ghawas.com

حزنان ..... د. محمد حسين الاعرجي ٣

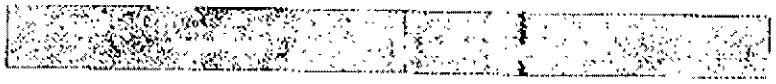

تأثير اللغة العربية في اللغة الرومانية ..... جورج غريغوري ٤-١٢

الحوار الاخير مع رائد علم
الاجتماع في العصر الحديث ..... عبد الجبار السامرني ١٣-١٨

دور الشفاء واثرها العلمي في بغداد
خلال العصر العباسي ..... د. فريال داود المختار ١٩-٢٩

العلاقات الدبلوماسية العباسية البيزنطية
في العصر العباسي الاول ..... موفق سالم الجوادي
د. عبد المنعم رشاد ٣٠-٣٧

قصة ثور الوحش- عند شعراء الطبقة الاولى-
ما بين التطور والانفتاح الرمزي ..... ايمان محمد ابراهيم العبيدي ٣٨-٥٤

ما لم ينشر من شعر أبي البقاء الرندي (٦٠١-٦٨٤هـ) .. صنعة د. محمد عويد محمد ٥٥-٥٨

عندما مصر العرب بلاد البرتغال اطلقوا على مدينة (كالة)
اسم البرتقال ثم عمموه على المملكة ..... مركز الانماء القومي ٥٩-٦٢

شعر يوسف بن لؤلؤ الذهبي (ت ٦٨٠هـ)
القسم الثاني ..... تحقيق عباس هاني الجراخ ٦٤-٨٧

فصول اخوانية للجاحظ في العقد الفريد
لم ترد فيما طبع من آثاره ..... د. يونس أحمد السامرائي ٨٨-٩٨

مصادر بريطانية عن الوطن العربي ..... ترجمة كاظم سعد الدين ٩٩-١٣١

قراءة في بائية البحتري في الاعتذار من الفتح
بن خاقان وعتابه ..... أ. د. فائز طه عمر ١٣٢-١٣٩

كوركيس عواد ١٩٠٨-١٩٩٢ حياته وآثاره ..... د. عبد الله عبد السوداني ١٤٠-١٥٠

www.dorat-ghawas.com

فصول إخوانية للجاحظ في العقد الفريد لم ترد فيما طبع من آثاره

د/يونس أحمد السامرائي
كلية الآداب ـ جامعة بغداد

تميز العصر العباسي بتطور الكتابة ومنها الكتابة الفنية، وذلك لأسباب عديدة. كما تميز بكثرة عدد الكتاب واختلاف قدراتهم الكتابية وثقافاتهم العامة والخاصة. ووازن بعضهم بين شعراء العصر الأموي وكتاب العصر العباسي في قوله:

(إن كانت دولة بني أمية حلبة الشعراء، فدولة بني هاشم حلبة الكتاب)[1].

وكان الجاحظ أحد الكتاب الكبار الذين نشأوا في أول هذا العصر وامتد به العمر الى منتصف القرن الثالث الهجري، وكان له أسلوبه الفني الخاص الذي عرف به. وكان إمام الطبقة الثانية من طبقات كتابه التي تميزت بسمات خاصة، وهي: (سهولة العبارة وجزالتها، وتقطيع الجملة الى فقرات كثيرة مقفاة أو مرسلة، وزيادة الاطناب في الالفاظ والجمل والاستطراد، ومزج الجد بالهزل، وتحليل المعنى واستقصائه، وتحكيم العقل والمنطق، والاعتراض بالجمل الدعائية)[2].

والمدة الطويلة التي عاشها يسرت له الاتصال بطبقات الشعب المختلفة اتصالاً وثيقاً والوقوف على جزئيات الحياة وكلياتها. فكان بثاقب نظرته، وحدة ذكائه، ودماثة طبعه، قديراً على تصوير تلك الجزئيات من حياة الناس وكلياتها، بل هو ـ كما يراه بعضهم ـ أقدر من سواه على سبر أغوار المجتمع وتصوير حالات أبنائه[3].

كتب الجاحظ في فنون النثر المختلفة، فكان في كل ما كتبه متمكناً قديراً، وكان من جملة كتاباته ما أثر له فيما يسمى

www.dorat-ghawas.com

بالإخوانيات، وهو فن يتعلق بموضوعات شتى. وقد لفت نظري ورود عدد غير قليل من هذه الموضوعات في كتاب العقد الفريد[1]. لم ترد فيما طبع من كتب الجاحظ ورسائله، كانت على شكل فصول، جاءت ضمن (كتاب التوقيعات والفصول والصدور) الذي اشتمل على عدد كبير منها استغرق تسع عشرة صفحة اي من ٢٢٣ - ٢٤٢. اختار ابن عبد ربه لعدد غير قليل من كتاب العصر في القرنين الثاني والثالث الهجريين: وكانت تلك الفصول في موضوعات متعددة: كالزيارة والوصاة والعقاب والتنصل وحسن التواصل والشكر والبلاغة والمدح والذم والادب، او الكتابة الى عبيد او خليفة أو أمير. وبعد انتهاء ابن عبد ربه من اختيار الفصول لهذه الموضوعات أنهاها بـ(فصول لعمرو بن بحر الجاحظ)، وكأنه - بعمله هذا وإفراد الجاحظ دون سواه بعنوان خاص من جهة، وكثرة ما تمثل به من فصوله في عدد من هذه الموضوعات - يريد أن يخبرنا بأهمية الرجل وتميزه عن سواه من الكتاب بهذا الفن الكتابي من جهة أخرى.

ويظهر أن ابن عبد ربه قصد بالفصول ما يتعلق بما ينشئه الكاتب منها دون أن تكون لها صلة برسالة او كتاب، أو قد تكون جزء مقتطعاً منهما. ولهذا جعل ضمن عنوان الكتاب (والصدور) أي ان هناك فصولاً جاءت في صدر رسالة او كتاب فاقتطعها منهما. ومعنى هذا أن فصول الجاحظ هذه ليست من الصدور. ولكن هل كانت اذن أجزاء مقتطعة من رسائل او كتب له؟

يبدو لنا انها لم تكن كذلك، وانما أنشأها وحدها لتؤدي المعاني التي قصدها وأرادها، علماً بأنها كانت تبدأ بكلمة (أما بعد) التي ربما جاءت أحياناً بعد كلام قد يقصر أو يطول، وأحيانا تأتي بعد البسملة مباشرة. وأكبر الظن انها كانت تبدأ بالبسملة التي اعتاد الجاحظ أن يجعلها في مقدمة رسائله وكتبه، ولعل ابن عبد ربه أسقطها؛ لانها معروفة، ومألوفة في أسلوب الرجل! ومما يلفت النظر كثرة هذه الفصول للجاحظ من جهة، وإغفال كتب الادب وغيرها عن ذكر واحد منها في جهة ثانية، وورودها في العقد دون سواه من جهة ثالثة، فمن أين استقاها ابن عبد ربه؟ فهو لم يشر الى مصادرها او مظانها. وعلى هذا فهل هناك شيء من الشك يخامر الباحث في صحة نسبتها الى الجاحظ؟ علماً بأن أحدا ممن كتب له منها لم يذكر الا في واحد منها، مع ان ابن عبد ربه ذكر في عدد آخر من الفصول لغير الجاحظ، اسم الكاتب والمكتوب اليه!

لقد كان الجاحظ كما ألمحنا ذا صلة وثيقة بالمجتمع وأبنائه وبالسلطة ورجالها، وعلى هذا فليس من الغريب ولا المستبعد أن تكون له مثل هذه الفصول المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالحياة وبعلاقته الوسيعة بالمجتمع وأبنائه. وان أسلوبها وما أنطوى عليه من سمات البلاغة والقدرة والبيان والتفنن الذي عرف به الجاحظ هو الآخر دليل على ترجيح صحة نسبتها اليه. غير ان قصر نفس الكاتب في هذه الفصول - وهو شيء غير مألوف لديه - يثير شيئاً من الاستغراب، فهل عمد الى هذا الأسلوب المركز والمكثف ليجعل منها نماذج تحتذى، وأمثلة تقتدى للدلالة على تفننه الكتابي، وقدرته البيانية؟

هذه تساؤلات نراها جديرة بالطرح نضعها بين يدي البحث قبل الاسترسال فيه. ولكن قبل البدء بدراستها ينبغي الوقوف على بعض الأمور:

فما المراد بالفصل؟ وما مقدار ما يشتمل عليه من جمل او عبارات؟ وهل ورد هذا الاسم في كتب الجاحظ ورسائله؟ وهل ظهر عند كتاب القرن الثاني والثالث الهجريين ومن جاء بعدهم؟

جاء في المعجمات حول معاني كلمة الفصل:

(الفصل: المسافة بين الشيئين والحاجز بين الشيئين - وملتقى كل عظمين في الجسد - والفرع. يقال للنسب أصول

www.dorat-ghawas.com

وفروع. وأحد أجزاء الكتاب مما يندرج تحت الباب. ومن القول: ما كان حقا قاطعا.. والفصل: النزر القليل والهذر الكثير.. والجمع: الفصول)[5]

ويتضح من هذه المعاني انها لا تشير الى المعنى المحدد الذي يعنيه في المؤلفات الأدبية. والذي - كما يبدو - يراد به الجمل القصيرة او العبارات القصيرة ذات المدلول المحدد حول موضوع ما. ويظهر أن مفهوم الفصل غير واضح أو غير محدد لدى ذاكريه من الأدباء، فهو يكون جملاً قصيرة لا تتعدى الثلاث[6]. كما قد يكون أكثر من ذلك حتى يصل الصفحة الواحدة[7]

واللافت للنظر أن هذه الكلمة لم ترد في مؤلفات الجاحظ، ولكنها جاءت بعد منتصف القرن الثالث الهجري، اي بعد وفاة الجاحظ في سنة ٢٥٥هـ، فقد سمى ابن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦هـ أحد كتبه (الفصول القصار)[8]، كما سمى الآخر (فصول التماثيل في تباشير السرور)[9]، ثم كثر استعمال هذه اللفظة وجمعها في مؤلفات القرن الرابع الهجري، كما في العقد الفريد، وكتب الثعالبي والحصري وسواهم.

وأستعمل الجاحظ ألفاظا أخر - على ما يبدو - للدلالة على كلمة الفصل او الفصول او الكلام القليل الألفاظ والعبارات، أمثال: مقطعات الكلام - او قصار الأحاديث والخطب او النتف.

جاء في البيان والتبيين: (باب من الخطب القصار من خطب السلف ومواعظ من مواعظ النساك وتأديب من تأديب العلماء) وتمثل على ذلك بقوله:

(وسمع الأحنف رجلا يقول: التعليم في الصغر كالنقش على الحجر. فقال الأحنف: الكبير أكبر عقلاً ولكن أشغل قلباً)[10].

وجاء فيه: (قد ذكرنا من مقطعات الكلام، وقصار الأحاديث بقدر ما استطعنا به مؤونة الخطب الطوال)[11].

وجاء فيه: (هذا - أبقاك الله - الجزء الثالث من القول في البيان والتبيين وما شابه ذلك من غرر الأحاديث وشاكله من عيون الخطب ومن الفقر المستحسنة والنتف المستخرجة والمقطعات المتخيرة...)[12].

وجاء أيضاً: (قد قلنا في صدر هذا الجزء الثالث في ذكر العصا ووجوه تصرفها وذكرنا من مقطعات كلام النساك، ومن قصار مواعظ الزهاد، وغير ذلك كما يجوز في نوادر المعاني وقصار الخطب..)[13].

ومعنى هذا ان الفصل او الفصول في النثر يشبه المقطعة او المقطعات في الشعر وهي التي تشتمل على عدد قليل من الأبيات لا يصل الى القصيدة[14].

فالفصل قد يكون في الأصل مكوناً من جمل او عبارات قليلة[15]. جاء في يتيمة الدهر في ترجمة الوزير المهلبي:

(ما أخرج من فصوله المُردفة بابيات الشعر:

فصل: رأيته فصيح الإشارة، لطيف العبارة:

إذا اختصر المعنى فشربة حائم

وان رام إسهابا أتى الفيض بالمذ)[16].

وجاء في زهر الآداب: (فصول قصار من كلامه (أي عمر بن الخطاب) رضى الله عنه: من كتم سره كان الخيار في يده. اشقى الولاة من شقيت به رعيته...)[17].

وقد يكون مقتطعاً من كتاب[18]، أو رسالة[19]. ويظهر ان الكلمتين تعنيان شيئاً واحداً.

***

وبعد هذه التوطئة نسترسل في دراسة هذه الفصول بحسب ورودها في العقد. فمنها في العقاب أربعة عشر فصلا.

فهو يرى ان المجازاة بالاحسان فريضة واجبة، والتفضل على سوى الاحسان غير ذلك. يقول: (أما بعد، فان المكافأة بالاحسان فريضة، والتفضل على غير ذوي الاحسان نافلة)[20].

وهو يطلب ممن يعاتبه أن يلجأ الى الصمت إن كان يريد التماس العافية وطلبها. يقول: (أما بعد، فليكن السكوت على

www.dorat-ghawas.com

لسانك، ان كانت العافية من شأنه)[٢١]. كما يعاتب آخر بعدم اللجوء الى النفور عمن يرغب في التقرب منه، لانه في هذه الحال سيكون مجافياً لجده، وجاحداً لنعمته[٢٢].

ويشير في نص آخر الى التضاد بين العقل والهوى، وان كلاً منهما اذا كان ما اتبع كان مؤدياً الى نتيجة تختلف عن الاخرى وتضادها، فالنجاح او التوفيق حليف العقل وقرينه، والفشل او الخذلان حليف الهوى وقرينه، ونفس الانسان راغبة دائماً وطالبة، وهي إذا ما ظفرت بواحد منهما كانت في معيته وجانبه، وكأنه يلمح في هذا العتاب ويغري من يعاتبه الى اتباع واحد من الأمرين: العقل الذي يؤدي الى المحمدة، او الهوى الذي يؤول بصاحبه الى المذمة. يقول: (أما بعد، فان العقل والهوى ضدان، فقرين العقل التوفيق، وقرين الهوى الخذلان، والنفس طالبة، فبأيهما ظفرت كانت في حزبه)[٢٣].

وهو يرى ان الناس كأصناف الأشجار، وحركاتهم كحركات الأفنان، وألفاظهم كفنون الثمار. ومعنى هذا ان هذه الأمور في أشكالها وأصنافها وفنونها مختلفة متباينة، فعلى العاقل الثاقب النظر أن يختار منها ما حسن وجمل ونضج لان كل شيء مما في الانسان يدل على حسن تصرفه أو قبحه. وهو عتاب فيه ما فيه من بعد الاشارة، ولطف العبارة، ودلالة الغزى وإصابة المرمى.

يقول: (أما بعد، فان الأشخاص كالأشجار، والحركات كالأغصان والالفاظ كالثمار)[٢٤].

وهو يرى ان القلوب ظروف تحفظ ما فيها من محاسن ومساوىء، من خير وشر، من حب وبغض، وان العقول مصادر لتلك الصفات، ومنابع لها، وأن ما تنضم عليه تلك الظروف معرضة للنفاد والذهاب اذا لم تمدها تلك المصادر وتغذها تلك المراكز. ومعنى هذا ان هناك تعاوناً وثيقاً بين القلوب والعقول، وأن أحدهما مستمد من الآخر ومعتمد عليه. وعلى هذا فعلى الانسان أن يصدر في أعماله عما يحبب الناس إليه، ويزيد تقديرهم له، اي ان للعقل المفكر المدبر اثراً واضحاً في تصرف الانسان تجاه نفسه وتجاه الآخرين. يقول:

(أما بعد، فان القلوب أوعية، والعقول معادن، فما في الوعاء ينفد اذا لم يُمده المعدن)[٢٥].

ويعاتب آخر ويذكره بأمور مهمة يراها الانسان في حياته ويكون لها الأثر الكبير في مجرى تصرفاته الحسنة او السيئة. وهل هناك أكثر تأديباً من التجارب، وعبرة من تغير الأيام، ومعرفة بأخلاق من يعاشر، وزجراً من ذكر الموت، انها أمور واضحة الدلالة على الحكم الفاصل بين الخير والشر، بين الحمد والذم، انها صدى لائحة أمام كل عاقل بعيد النظر في تقديره الأمور، يرجو المحمدة في حياته، والخلود في فنائه:

(أما بعد، فكفى بالتجارب تأديباً، وبتقلب الأيام عظة، وبأخلاق من عاشرت معرفة، وبذكرك الموت زجراً)[٢٦].

وهو يرى ان الصبر على احتمال ما يسببه الغضب من ألم أو حرقة أو وجع أسهل وأخف من اللجوء الى إطفائه والتغلب عليه بالسب والشتيمة والهجر. وهذا يعني أن يكون الانسان واسع الصدر، كثير الاحتمال، سهل العريكة في المجالات التي لا يستطيع كل أحد الصبر عليها، والغض منها. يقول:

(أما بعد، فان احتمال الصبر على لذع الغضب أهون من إطفائه بالشتم والقذع)[٢٧]. ويقرب من معنى النص المتقدم ما يراه من مآل الأمور وعواقبها اذا ما نشب خصام او نزاع، فأثقب الناس نظراً، وأبعدهم تقديراً هو الذي رق طبعه، وبعُد نظره فقضى على ما يحدث له من مكروه عن طريق التسامح والتجاوز، واستل سخائم الحقد والضغينة بما تحلى به من لين الطبع، وأظهره من تودد وتلطف. ولعل الجاحظ تعرض الى شيء من الخصومة والاطراح فقال ما قال على سبيل المعاتبة التي تقرب كثيراً من النصيحة والتدبير الحسن، يقول:

(أما بعد، فان أنظر الناس في العاقبة من لطف حتى كف

www.dorat-ghawas.com

حـرب عدوه بـالصفح والتجاوز، واسـتل حقـده بـالرفق والتحبب)[٢٨].

ويرى أن الاسـتعداد لتلقـي النوائب لا يكون الا لمن كان بـعيدُ النظر في العواقـب والتكهن لنتائجها، وان من كبرت نعمته وعظمت، كثر طلبـه لما في الدنيا حـتى إستوعبـتها همته، أما من جعل طلب الآخرة همه ووكده، فان الأيام لديه لا تكون سـوى مطايا لعمله، والآخرة مكان مستقـرة، ومحل إقـامته الأبـدية. وهو في هذا النص يحدّد مكانة الانسـان في هذه الدنيا، فمن كان بـعيد النظر كان أولى من سـواه في الاسـتعداد لدرء أخطار النوائب، ومن كان يطلب الدنيا ـ لما فيها من بهجة وسرور ومتعة ـ صرف همته وطاقـته وجهده نحو تحقـيق هذه الأمور. ومن كان يراها طريقـا قـصيرا للوصول الى الغاية المعروفة، اتخذها مطية ذلولاً توصله الى مراده ومستقره. يقول:

(أما بـعد فأن أهل النظر في العواقـب أولو الاسـتعداد للنوائب، وما عظمت نعمة امرىء الا استغرقت الدنيا همته، ومن فرَغ لطلب الآخرة شـغله جعل الأيام مطايا عمله، والآخرة مقيل مرتحله)[٢٩].

ويقـرب من المعنى السابـق ما يراه من ان العناية بـالدنيا وطلب ما فيها لا يزيد فيما قسـم من رزق وحـتم من أجل، وان الغنى لا ينقص من القضاء اذا حُمّ، والحكم اذا وقـع، وفي هذا النص والذي قبله، عتاب مبطن ـ اذا صح التعبير ـ بأن على المعاتب أن يعرف بـان المصير محتوم لكل إنسـان، وانه لا يبقى الا الذكر الحسن والسـمعة الطيبـة، وان الدنيا غرّارة خدّاعة ليس للانسـان فيها الا أيام قـصيرة يتركها الى عالم آخر خالد. واذا كان الأمر كذلك فلم يكون الجفاء والنفرة بـين واحـد وآخر؟ ولم هذا التفاني في طلب الزائل وترك الخالد الدائم؟ انهما من النصوص التي تندرج ضمن بـاب الآداب. يقول:

(أما بعد، فان الاهتمام بـالدنيا غير زائد في الرزق والأجل، والاستغناء غير ناقص للمقادير)[٣٠].

ويرى أن ليس بمقـدور كل حـليم الامتناع عما يحدث له من أمور فادحـة، والتأني والسـكون عند غضب أو مكروه يتعرض له. فان بـعض الأمور تحمل من يكون ذا مقـدرة عظيمة على ضبط النفس، والإمسـاك عن التهور والغضب، الى غير ما عرف عنه من خلق وصبر وتحمّل. ومعنى هذا ان للانسان طاقة محدودة لتحمل الأذى، واحـتمال ما يعرض له من أمور خطيرة. والجاحـظ في هذا النص يكاد يظهر شـيئاً من التهديد لمن يعاتبـه، وهو أمر جديد في مثل هذا البـاب. وهو أيضا يجانف العتاب الذي أشار إليه ابـن رشـيق في قـوله: (العتاب ـ وإن كان حـياة المودة، وشاهد الوفاء ـ فإنه بـاب من أبـواب الخديعة، يسـرع الى الهجاء، وسبـب وكيد من أسباب القطيعة والجفاء، فاذا قـلّ كان داعية الألفة، وقيْد الصحبـة، واذا كثر خشـن جانبـه، وثقـل صاحبـه. وللعتاب طرائق كثيرة، وللناس فيـه ضروب مختلفـة، فمنـه مـا يمازجـه الاسـتعطاف والاسـتئلاف، ومنه ما يدخله الاحـتجاج والأنتصاف، وقد يعرض فيه المنّ والإجحاف، مثل ما يشركه الاعتذار والاعتراف)[٣١]. يقول الجاحظ:

(أما بـعد، فانه ليس كل من حـلُم أمسك، وقـد يستجهل الحليم حين يستخفه الهُجر)[٣٢]. ويخاطب الجاحظ بعض من يعاتبـهم، وكأنه ينصح له ويلفت نظره الى ما يجب أن يفعله حيال الآخرين، ومنهم الجاحظ نفسه بالطبع، قائلاً له: اذا كنت تريد حب أودائك لك، وميلهم نحوك، وتقـديرهم لك، فعليك أن تعدّ صنيعك ومعروفك لهم قـليلاً وان كان كثيراً. يقول:

(أما بـعد، فأن أحببت أن تتم لك المقة في قـلوب اخوانك، فاستقلّ كثيراً مما توليهم)[٣٣].

وآخر نصوص هذا البـاب ما عاتب بـه أبـا حـاتم السجستاني[٣٤]، وبـلغه عنه أنه نال منه، فخاطبـه خطابـاً لطيفاً، وعاتبه عتاباً رقيقاً، طالباً منه الكف عنه من حدة

www.dorat-ghawas.com

اللسان، والابتعاد عما يوجهه من نقد وتجريح، فلو فعل ذلك، لكان مستحقا لهذا الفعل منه، وجديرا به. ويبدو ان هذا العتاب الناعم - اذا صح التعبير - قد أثر في السجستاني فقيل (فلم يعد أبو حاتم الى ذكره بقبيح) يقول الجاحظ:

(فلو كففت عنا من غربك لكنا أهلا لذلك منك والسلام)[25].

يتضح من هذه المعاتبات ان الجاحظ كان دقيقا فيها، مقدراً لما ستؤول إليه؛ ولهذا لم يعنف ولم يهدد او يتوعد الا في واحدة منها. وعمد الى تحكيم العقل والنظر الثاقب، والتقدير الحسن، والموازنة بين ما هو فان وما هو خالد، فكانت أقرب الى النصائح والارشادات او الآداب منها الى فن العتاب، كما عمد الى أن تكون موجزة، منتخبة الالفاظ، بعيدة عن التكلف او الغرابة، وهي - كما يبدو - وليدة العقل المفكر الذي عرف به الرجل أكثر من كونها وليدة العاطفة او التحامل او التهور.

ومن فصوله في الوصاة أربعة فصول:

منها: توصيته لأحدهم قائلاً: ان أجدر من تقضى حاجته، ويلبي طلبه ذلك الذي يتقرب اليك بحرمة تعطفه عليك، مؤملاً فيك إنجاز بغيته، وينجذب نحوك مسترفدا راجيا إنجاز ما يسعى إليه من تحقيق ضالته:

(أما بعد، فان أحق من أسعفته في حاجته، وأجبته الى طلبته، من توسل إليك بالأمل، ونزع نحوك بالرجاء)[26].

ومنها: قوله في وصاة آخر:

ان أقبح ما يتحدث به بين الناس قاصد معروف حرم، وناشد بغية رد، وساع في الامر حجب، ومستبشر فيمن يقصد قبض، وعنان آمل لوى. ومن يكن هذا فعله فليرجع الى محاسبة النفس، ويتدبر الأمر مليا، وأن لا يكون مطيعا لكل ضعيف القلب، مكثار للحلف بالباطل، فعتاب للناس، ساع بينهم بالنميمة، ناتٍ الأحاديث هنا وهناك.

وهذا النص يقرب في معناه من النص السابق، وان كان نفس الجاحظ أطول فيه، وأكثر امتدادا، وعمد فيه - وهو من سمات اسلوبه - الى الاكثار من المترادفات، فان الجمل الخمس الاول تكاد تكون بمعنى واحد. وحلاله - وهو من سمات أسلوبه - تضمين هذا الفصل آية قرآنية وهي قوله (ولا تطع كل حلاف مهين، هماز مشاء بنميم)[27]. كما التزم السجع في الجمل الأربع الاول وهو مما لم يكن من مزايا اسلوبه الذي عرف به أيضاً.

(أما بعد، فما أقبح الأحدوثة من مستمنح حرمته، وطالب حاجة رددته، ومُثابر حجبته، و منبسط إليك قبضته، ومُقبل إليك بعنانه لويت عنه. فتثبت في ذلك، (ولا تطع كل حلاف مهين، هماز مشاء بنميم)[28].

ومنها:

وصاته برجل الى أحدهم جاء فيها: ان الموصى به يمت إليه بصلة قربى أو مودة، وأن حق هذا الموصى به وحرمته ووشيجة صلته به تحتم عليه أن يبلغ مناه على يدي الموصى، وهو يراه جديراً بذلك وموضع ثقته من مكافأته، وإنجاز طلبه، لذا يأمل منه أن يحسن الصنيع بما يدل على حسن رأيه فيه، وقربه منه، فيكون صنيعه هذا، مكافأة لحق الموصى به عليه.

وبهذا الأسلوب المتين، والمعنى الدقيق الخالي من أيّ شائبة تشينه، او تضعف منه، يوجه الجاحظ وصاياه الى من ينشد فيهم القدرة على تحقيق ما يطلبه منهم ويرجوه لمن يتقرب اليه من المحتاجين، وهم كثر.

(أما بعد، فان فلاناً أسبابه متصلة بنا، يلزمنا ذمامه عندنا بلوغ موافقته من أياديك، وأنت لنا موضع الثقة من مكافأته، فأولنا فيه ما نعرف به موقعنا من حسن رأيك، ويكون مكافأة لحقه علينا)[29].

ومنها: هذه التوصية وهي النص الأخير فيما اجتباه ابن عبد ربه من وصايا الجاحظ ويبدو انها على العكس من الوصية السابقة، اذ يذكر فيها وصول كتاب أحدهم إليه في

www.dorat-ghawas.com

التوصية بآخر، وان لدى الجاحظ من العهد ووجوب الحرمة تجاه هذا الموصى به ما يحمله على مكافأته ورعاية حقه. وهو شديد الاهتمام بأمره وكثير العناية به بحيث تتساوى وما يضمره له من لزوم الرعاية والحرمة والعهد. والوصاة مع ذلك تشبه الى حد كبير المعنى الذي انطوت عليه، والعبارات التي أدت ذلك المعنى الوصاة السابقة حتى لتكادا أن تكونا متماثلتين في كل ما انطوتا عليهما.

(أما بعد، فقد أتانا كتابك في فلان، وله لدينا من الذمام ما يلزمنا مكافأته ورعاية حقه، ونحن من العناية بأمره على ما يكافىء خرمته، ويؤدي شكره)[30].

* * *

ومن فصوله في استنجاز وعد ثلاثة فصول.

منها: قوله في مخاطبة بعضهم: رسفنا في أقياد مواعيدك، وطال مكثنا في حبوس تسويفك، فحررنا - أبقاك الله - وهذا الدعاء مما تميز به اسلوب الجاحظ - مما نحن فيه من ضيق وكرب شديدين بلفظة (نعم) الدالة على الاثمار والنجاح، او لفظة (لا) الدالة على التعذر والإخفاق، لكي نرتاح في الحالين، ونكون على بينة من أمرنا. وهو بهذا الاسلوب المركز قد استوفى كل ما يمكن أن يبتغيه من هذا الفن، وهو دليل القدرة الأدبية، والمكنة الفنية التي اشتهر بهما من بين سائر كتاب العصر. يقول:

(أما بعد، فقد رسفنا في قيود مواعيدك، وطال مقامنا في سجون مطلك، فأطلقنا - ابقاك الله - من ضيقها وشديد غمها بـ(نعم) منك مثمرة، أو (لا) مريحة[31] ومنها: في مخاطبة آخر قائلاً له: ان شجرة مواعيدك قد أورقت، فليكن ثمرها سالماً من مصائب تسويفك، وهذا يقرب من معنى النص السابق:

(أما بعد، فان شجرة مواعيدك قد اورقت، فليكن ثمرها سالما من جوائح المطل)[32]، ومنها وهو النص الأخير في هذا الفن، وهو شبيه بما سبقته لفظاً ومعنى، يخاطب فيه بعضهم قائلاً له:

ان سحاب وعدك قد برقت، ومعنى هذا ان الأمل في إنجاح مطلبه منه قد بدت تباشيره وأماراته، وعلى هذا فليكن مطرها خالياً مما يشوبه من الصواعق المهلكة، صواعق التسويف والماطلة، واختلاف العلل والأعذار:

(أما بعد، فأن سحاب وعدك قد برقت، فليكن وبلها سالما من صواعق المطل والاعتلال)[33].

يتضح من هذه النصوص الثلاثة تكرار الجاحظ للمعاني والألفاظ حتى يكاد بعضها يتشابه في كل شيء، وسبب هذا انه يكتب في موضوع واحد له ألفاظه ومعانيه كذكر المواعيد ووجوب الإيفاء بها، وعدم المماطلة او التسويف فيها. ويلاحظ في هذه النصوص الثلاثة ان الكاتب عمد الى استعمال الاستعارة فيها: كقيود المواعيد، وشجرتها وسحابها، وسجون المطل، وصواعقه، وهو مما لم يكن في سمات أسلوبه. وقد ألح البديع الى ذلك في مقامته الجاحظية)[34].

ومن فصوله في الاعتذار تسعة نصوص.

منها قوله: ان أفضل بديل من الزلة الاعتذار مما يقع، وان أقبح عوض من التوبة الإصرار على الزلة والتمسك بها. وواضح ان هذا يندرج ضمن تعريف الاعتذار، ولا يفهم منه ان الجاحظ يعتذر الى أحدهم.

(أما بعد، فنعم البديل من الزلة الاعتذار، وبئس العوض من التوبة الإصرار)[35]. ولا حاجة الى التنبيه لما اشتملت عليه العبارتان من الاتزان في عدد الألفاظ والتطبيق وهو خصيصة لم تكن من خصائص أسلوب الجاحظ.

ومثل النص السابق قوله: ان أفضل من ملت إليه بعقلك من لم يتوسل اليك بسواك:

(إن أحق من عطفت عليك بحلمك من لم يتشفع إليك بغيرك)[36].

ومنها قوله في بعضهم وقد جفاه واطرحه: ان لا شيء يمكنه أن يسد مسد إخائه، ولا يجد خلفاً يلجأ إليه أفضل من

www.dorat-ghawas.com

حسن ظنه به. وقد نال منه بسبب زلته وهفوته ما ناله من اطراح وابعاد، فيلتمس بعد هذا الجفاء والاطراح أن يخفف ما يعانيه ويكابده وذلك باطلاق سراح أسير تشوقه ليمكنه الالتقاء به:

(أما بعد، فانه لا عوض من اخائك، ولا خلف من حسن رايك. وقد انتقمت مني في زلتي بجفائك، فأطلق أسير تشوقي الى لقائك)[22].

ومنها قوله لآخر:

انه بسبب عرفانه بما ينطوي عليه حلمه من الرجحان، وينعقد عليه عفوه الأكيد ضمن لنفسه العفو عن زلته وهفوته:

(أما بعد، فإنني بمعرفتي بمبلغ حلمك، وغاية عفوك، ضمنت لنفسي العفو من زلتها عندك)[23]

ومنها قوله الآخر:

ان من أنكر إحسانه وافضاله بسبب قوله السيء فيه، مكذب نفسه، لما شاع من هذا الإحسان والفضل بين الناس وانتشر.

(أما بعد، فإن من جحد إحسانك بسوء مقالته فيك مكذب نفسه بما يبدو للناس منه)[24]

ومنها قوله لاخر جفاه وانقطع عن مواصلة زيارته: ان الألم قد ناله من قطيعته له، ولا يذهب هذا الالم سوى مواصلته له. وان يحبس اعتذارد في هفوته وزلته، ثم يستدرك الكاتب فيقول له غير ان اجتراحك لذنب واقترافك له يزينه حسن مودتك وصدق محبتك. ثم يطلب اليه لكي يرضى عنه. ويعود الى مواصلته أن يحسن اليه بصنيع يزيل ما بدر منه من إساءة، ويكون بديلاً عما بدا منه من زلة وهفوة:

(أما بعد، فقد مسني من الألم بقطيعتك ما لا يشفيه غير مواصلتك، مع حبسك الاعتذار من هفوتك؛ ولكن ذنبك تغتفره مودتك، فامنن علينا بصلتك تكن بدلاً من مساءتك، وعوضا من هفوتك)[25].

ومنها قوله: وكأنه أشبه بالنصيحة أو أدخل في باب الآداب. فلا خير فيمن استوفى حقده وضغينته قدر صاحبه عنده، ولم يكن رحب الصدر واسعه لاستيعاب زلات الإخوان وهفواتهم:

(أما بعد، فلا خير فيمن استغرقت موجدته عليك قدرك عنده، ولم يتسع لهنات الإخوان صدره)[26].

ومنها قوله: وهو يندرج ضمن باب الآداب ويقرب من معنى النص السابق: ان أفضل الناس عنده من يصفح عن الآخرين، لا عن مقدرة منه عليهم، ولكن بسبب التماس الاعتاب والرضا منه:

(أما بعد، فان أولى الناس عندي بالصفح من اسلمه الى ملكك التماس رضاك من غير مقدرة منك عليه)[27].

ومنها - وهو النص الاخير في هذا الفن - قوله لآخر، وكانه يعزره ويلومه ان ذمك لي على ما بدر مني من إساءة لم يكن حقا، والدليل على ذلك أنك كافأتني وأحسنت إلي:

(أما بعد، فان كنت ذممتني على الإساءة، فلم رضيت لنفسك المكافأة)[28].

يتضح من هذه النصوص الأيجاز والاختصار حد الاقتصار على عبارتين في أغلبها. كما يتضح التركيز على المعاني المتشابهة، واعتماد الألفاظ ذات الدلالات المحددة. كما يبدو انها كانت أمثلة مقصودة للتعليم والتدريب على مثل هذا الفن، ولهذا كان عدد منها غير موجه الى أحد، وانما كانت العبارات عامة تصلح لكل من ينبغي الكتابة في هذا الموضوع. وعلى هذا فهل هذه النصوص أنشئت لهذه الغاية أكثر من أن تكون حقيقية، كتبها الجاحظ لأشخاص معينين بدر منه تجاههم هفوات أو زلات اضطر الى الاعتذار اليهم؟

ويتضح كذلك ان هذه الاعتذارات لا تشبه اعتذارات البحتري مثلا الذي اشتهر بهذا الفن في هذا العصر حتى كان معروفا بها من بين سائر الشعراء[29].

www.dorat-ghawas.com

ومن فصوله في التعازي - وهي آخر فصوله المختارة - أربعة فصول: فمنها قوله في تعزية أحدهم: ان ما مضى قبلك هو الموروث لك، وان الباقي بعدك هو المثاب فيك، فعليك التجمل بالصبر، والتحلي بالجلد، فللصابرين من الأجر الموفى ما لا حساب له ولا عدداً، والاقتباس من القرآن الكريم من خصائص أسلوب الجاحظ. يقول:

(اما بعد، فان الماضي قبلك الباقي لك، والباقي بعدك المأجور فيك (وانما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب)[٢٥].

ومنها تعزيته لآخر حيث يقول: ليس هناك أفضل للانسان الذي يصيبه مكروه او تنزل به مصيبة، من ان يلجأ الى الله سبحانه، ويستغيث به، ففيه العزاء الذي يرجوه، والامل الذي ينشده، وهو سبحانه تعالى كذلك أفضل خلف لمن يصاب بكارثة او مصيبة، ولمن لا يتصبر على مصابه به سبحانه فان نفسه تنقطع حزناً ولهفة على الدنيا وما فيها. يقول:

(أما بعد، فان في الله العزاء من كل هالك، والخلف من كل مصاب، وانه من لم يتعزّ بعزاء الله تنقطع نفسه على الدنيا حسرة)[٢٦].

ومنها قوله يعزي أحدهم وينصح له التمسك بالصبر ما استطاع، فان عاقبة الصبر الجزاء الحسن، اما الفزع الشديد فلا يعقبه الا ما يماثله ويزيد عليه. ولما كان الأمر كذلك فعليك ايها المعزّى التمسك بالصبر ففيه تنال ما تطلبه، وفيه تحقق ما تأمله وترغب فيه:

(أما بعد، فان الصبر يعقبه الأجر، والجزع يعقبه الهلع، فتمسك بحظك من الصبر تنل به الذي تطلب او تدرك به الذي تأمل)[٢٧].

ومنها - وهو آخر فصل في التعازي، وآخر فصل في الفصول كلها - يعزي أحدهم ويوصيه بالرجوع الى القرآن الكريم، فهو خير مرشد وكاف لذوي العقول، كما انه خير ناه وناهر لهم، وعلى هذا فعليك - أيها المعزّى - الإكثار من قراءته وتلاوته لتنجو مما هدد الله به من عصى وزل، وخرج عن الطاعة.

(أما بعد، فقد كفى بكتاب الله واعظاً، ولذوي الالباب زاجراً، فعليك بالتلاوة تنج بما أوعد الله به أهل المعصية)[٢٨].

يتضح ان الكاتب شدد على أمور ينبغي على من يصيبه مكروه، وتنزل به كارثة، اللجوء اليها والتمسك بها: كالتحلي بالصبر الجميل، والخلود الى ذكر الله تعالى، وقراءة كتابه الكريم. وهذه ليست جديدة وانما هي من خصائص هذا الفن. فهي تتكرر لدى المعزين من الكتاب والشعراء. ويبدو ان الجاحظ يقدم مجموعة من النصائح في هذا الفن أكثر مما يقدم نصوصاً تدل على تأثره الوجداني، وتعاطفه مع من يعزّيه، فهي كمثيلاتها من النصوص المتقدمة، تكاد تكون مجموعة من العبارات المركزة ذات المعاني المحددة في هذا الفن، ليقتدي بها الآخرون حين يعزّون من تصيبهم مصيبة، وإلا فأين الحرارة، والتهاب العاطفة، وحرقة القلب في هذه النصوص؟

يتضح مما تقدم كثرة هذه الفصول المنسوبة الى الجاحظ والتي أفردها ابن عبد ربه وختم بها الفصول التي اجتباها وضمنها كتاب (التوقيعات والفصول والصدور) من كتابه العقد الفريد.

وهذه الكثرة المختارة من فصول الجاحظ تبعث على التساؤل الذي لابد منه، فكيف عثر عليها ابن عبد ربه وفاتت أصحاب المصنفات الذين أكثروا من الاختيارات المتنوعة للجاحظ، بل كيف لم تذكر ضمن مؤلفاته وهي ليست قليلة، وقد نشر قسم لا بأس به منها وخاصة رسائله.

فهل هذه الكثرة من جهة، وانفراد العقد بها من جهة أخرى تبعث على الشك في صحة نسبتها أو أغلبها الى الجاحظ؟

ان هذه الفصول دلت على تأكيد قدرة الجاحظ الكتابية

www.dorat-ghawas.com

في الموضوعات المختلفة، فلم يضعف له معنى، ولم يسف له لفظ، ولم تلتو له عبارة، ودلت على أن موضوعات النثر بدأت تطاول موضوعات الشعر وتشركها في فنونها، اذ المعروف ان العقاب والاعتذار واستنجاز الوعد والتعازي (الرثاء) من طبيعة موضوعات الشعر لا النثر. ومعنى هذا ان القرن الثالث الهجري يعد المهد الحقيقي لشيوع هذه الفنون في القرن التالي له، اي يعدّ الجاحظ من أوائل الكتاب الذين يعود الفضل اليهم في هذا الشأن.

ويظهر ان خلو هذه النصوص مما يمكن أن يستدل منها على ان الجاحظ قد مرّ فعلاً بظروف وأحوال مع افراد المجتمع، اضطرته الى الكتابة، مما يحمل الباحث على الظن انه كتبها لتكون أمثلة يحتذى بها، ونماذج عالية الأسلوب يقتدي بها من يروم تعاطي فن النثر. واذا صح هذا فهي تشبه المقامات التي كان من أهداف منشئها - كما يقول - تعليم الناشئة فن الكتابة عن طريق ما اشتملت عليه من لغة عالية، وأسلوب متين، وألفاظ فصيحة.

وبعد، فان الجاحظ في هذه الفصول نجح الى حد كبير فيما كان يسعى اليه، وتأكد لدينا بانه ذلك الكاتب الفطحل الذي يستحق أن يكون إماماً للطبقة الثانية من كتاب العصر العباسي: عقلاً وفكراً، ومقدرة، وتنوعاً، وأسلوباً.

الهوامش

١- أخبار ابي تمام ١٠٩

٢- تاريخ الادب العربي للزيات ٢١٧ ط٢٥

٣- انظر: ضحى الاسلام ٣٨٨/١

٤- بلغ عددها (٢٥) فصلاً.

٥- انظر: اللسان والقاموس والمعجم الوسيط ٦ - ٢٥٧/١

٦- انظر: يتيمة الدهر: ٢٢٢/٢ - ٢٢٥، ٢٥٠ - ٢٥٧ وزهر الآداب ٤١/١

٧- انظر اليتيمة: ٢٤٩/٢ وزهر الآداب ١٣٤/١، ١٣٥

٨- انظر: كتاب الآداب ٢٥

٩- طبع الكتاب ببغداد سنة ١٩٨٩

١٠- ١٠- ٢٥٧/١

١١- ١١٧/٢

١٢- ٥/٣

١٣- ٢٦٨/٣ وانظر ٣٠٢

١٤- انظر: ابحاث في الشعر العربي - بحث المقطعات.

١٥- انظر: يتيمة الدهر: ٣٢/١ - ٣٥، ٣/ ٢٢٩، ٢٣٢، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٤٧ وزهر الآداب ٤١/١، ١٣٤، ١٣٥، ١٤١

١٦- ٢٣٢/٢ ١٧- ٤١/١

١٨- انظر: يتيمة الدهر ٢٢٩/٢ وفيه: (فصل من كتاب الروزنامجه ايضا، ٢٤٧/٣ في ترجمة الصابي وفيه: (وقرات له فصلاً من كتاب في ذكر صلة وصلت منه اليه...)

١٩- اليتيمة (٢٤٩/٢ وفيه: (فصل في رسالة عن صديق له (اي الصابي) في الخطبة...)

٢٠- العقد الفريد ٢٤٢/٤

٢١- المصدر نفسه

٢٢- المصدر نفسه

٢٣- المصدر نفسه

٢٤- المصدر نفسه

٢٥- العقد الفريد ٢٤٢/٤

٢٦- المصدر نفسه ٢٤٢/٤

٢٧- المصدر نفسه

٢٨- المصدر نفسه

٢٩- العقد الفريد ٢٤٢/٤

٣٠- المصدر نفسه

٣١- العمدة: ١٦٠/٢

www.dorat-ghawas.com

٣٢ـ العقد الفريد ٤/٢٤٣

٣٣ـ المصدر نفسه

٣٤ ـ هو سهل بن محمد من كبار العلماء باللغة والشعر، من أهل البصرة. له تصانيف كثيرة. توفي سنة ٢٤٨هـ او ٢٥٥ هـ (الأعلام ٣/٢١٠).

٣٥ـ العقد الفريد ٤/٢٤٣

٣٦ـ العقد الفريد ٤/٢٤٣

٣٧ـ سورة القلم / ١٠

٣٨ـ العقد الفريد ٤/٢٤٤

٣٩ـ المصدر نفسه

٤٠ـ المصدر نفسه

٤١ـ المصدر نفسه

٤٢ـ العقد الفريد ٤/٢٤٤

٤٣ـ المصدر نفسه

٤٤ـ انظر: المقامة الجاحظية

٤٥ـ العقد الفريد ٤/٢٤٤

٤٦ـ المصدر نفسه

٤٧ـ العقد الفريد ٤/٢٤٤

٤٨ـ نفسه ٤/٢٤٥

٤٩ـ المصدر نفسه

٥٠ـ المصدر نفسه

٥١ـ العقد الفريد ٤/٢٤٥

٥٢ـ المصدر نفسه

٥٣ـ المصدر نفسه

٥٤ـ انظر البحتري في سامراء حتى نهاية عصر المتوكل (الفصل الخاص) بالفتح

٥٥ـ العقد الفريد ٤/٢٤٥. الزمر / ١٠

٥٦ـ المصدر نفسه

٥٧ـ المصدر نفسه

٥٨ـ المصدر نفسه

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- أبحاث في الشعر العربي. د. يونس احمد السامرائي بغداد ١٩٨٩
- أخبار أبي تمام للصولي تحـ / جماعة ط(١) ١٣٥٦ ـ ١٩٣٧
- الاعلام للزركلي بيروت ط(٢) ١٩٤٢
- البحتري في سامراء حتى نهاية عصر المتوكل. يونس احمد السامراني بغداد ١٩٧٠
- البيان والتبيين للجاحظ تحـ/ عبد السلام هارون ـ القاهرة ط(٤) ١٣٩٥ ـ ١٩٧٥م
- تاريخ الادب العربي للزيات ط(٢٥) القاهرة
- زهر الآداب للحصري تحـ/ د. زكي مبارك ط(٢) ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٣م مصر
- ضحى الاسلام لأحمد أمين القاهرة ط (٧) ١٩٦٤
- العقد الفريد لابن عبد ربه بيروت ١٣٧٥ ـ ١٩٦٥
- العمدة لابن رشيق تحـ/محيي الدين عبد الحميد ط(٣) القاهرة ١٣٨٣ ـ ١٩٦٤
- فصول التماثيل في تباشير السرور لابن المعتز./ مكي السيد جاسم بغداد.
- القاموس المحيط
- كتاب الآداب لابن المعتز تحـ/ صبيح رديف بغداد. ط(١) ١٩٧٢ / ١٣٩٢
- اللسان مصور طبعة بولاق
- المعجم الوسيط تأليف جماعة ط(٢) مصر ١٣٩٢ هـ ـ ١٩٧٢م
- المقامات الادبية لبديع الزمان مصر ط(٢) ١٣٦٩هـ ـ ١٩٥٠م
- يتيمة الدهر للثعالبي / تحـ/ محيي الدين عبد الحميد ط(٢) القاهرة ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٦م

www.dorat-ghawas.com